الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين لهُ في الهند

—٢—

والامير الهندي الوثني الآخر الذي برع في بلاط الملك جلال الدين اكبر في فنون الشعر بالفارسية هو « راجا بهوبت رائي سوائي » واسمهُ الرمزي في الشعر « ينم » (١) . فقد ذكرنا الأستاذ امير بيك المتوفى سنة ١٢١١ هجرية في كتابه « حدائق الشعراء » الذي نسختهُ الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الاسيوية بكلكته (الهند) بيتاً واحداً له يدل على حذقه الشعر الفارسي الغنائي . واليك ترجمته قال

في غيابك يا راحة قلبي ! ان في ليالي هجرك
يمُنُّ « ينم » ابيناً ضائع القلب وينهمر الدموع

على ان مرور الزمن قرر على هؤلاء الهنود أمره ، فدعا إلى الفارسية وادبها تنويهم ، وشغل بها خواطرهم وفكرهم ، فتصدّى لدراستها عددجمٌ منهم في الحكومات التي تلت حكومة جلال الدين اكبر ، فأصبح حظهم منها اوفر ، حيث برزت شخصية « شندربهان » الشهير باسمهِ الرمزي الشعري « برهمن » في عالم العلم والادب ، فنالت محلاً جليلاً ومنزلةً عليا في قلوب معاصريها من علماء اللغة الفارسية وادبائها وشعرائها

كان والد « شندربهان » هذا خطاطاً عظيماً وموظفاً لدى الحكومة المغولية فتسنى لهُ ان يصرف عنايته ويبذل جهده في تربية ابنه وتعليمه . فاخذ « شندربهان » العلوم العربية والفارسية عن اكبر العلماء في عصره وأوحد زمانه بلا نزاع وهو العالم العلامة الفيلسوف عبد الحكيم السيالكوتي رحمة الله عليه ، فبرع فيها وتبحر

---

(١) من العادة في الادب الفارسي والادب الهندي ان الشاعر يختار لنفسه اسماً رمزياً غير اسمه الحقيقي فيستعمل هذا الاسم في شعره ويشتهر بهذا الاسم في عالم الشعر والادب

حتى استوقفت بسطته في العلم وقدرته بالفارسية نظر سمو الأمير «دارا شكوه»[١] ابن الملك شهاب الدين شاه جهان[٢] وهو أكثر الأمراء نصرة للعلوم والفنون وأوفرهم تضلعاً منها وأوفاهم تقديراً لها في تاريخ الهند الاسلامي، فنيته كتم سره الخاص. فتزعزعت كفاءة الشاب العالم الشاعر «شندربهان» ولمع نبوغه هكذا في حضن رعاية الامير وتقديره، حيث صنف كتابه النفيس «جهارجمن» (أي الحدائق الاربع) في انشاء الادب الفارسي وأسلوبه. ومهما تكن قيمة «جهارجمن» هذا من وجهة النقد في العصر الحاضر، فلا شك فيه انهُ أصبح فيما بعد لحقب من الزمن سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع من الكاتب والمنشيء في أحسن الأساليب الفارسية المألوفة حينئذٍ في الهند. فكان كتاب الطالب والمعلم في المكاتب والمدارس في جنب كتاب الانشاء للعالم الوزير الشهير الآنف الذكر «أبو الفضل» لأحيان كثيرة.

كان «شندربهان» شاعراً مغلقاً بالفارسية بعد ديوانه مثالاً في الشعر المطبوع عند أوساط الادب والشعر. وله حكاية طريفة وهي ان الامير «دارا شكوه» حين قدمهُ أول مرة الى أبيه الملك شاه جهان ورجال حاشيته حوله طلب الملك ان يسمعهُ شيئاً من شعره فقرأ الشاعر بيتاً ترجمتهُ فيما يلي:

إن قلبي يحب الكفر (الى درجة) اني

حملتهُ مراراً الى الكعبة ولكنهُ رجع مني وهو برهمن[٣]

فاغتاظ الملك لما في معنى البيت من طعن خفي في الاسلام وهو دين الحكومة وبخاصة في ذلك العهد إذ كان للدين كل الشأن وكاد ان يذهب الشاعر ضحية سوء أدبه هذا، لولم يتقدم «أفضل خان» أحد كبار رجال الحاشية وينحي الحكاية بقراءة بيت للشاعر الفارسي الشهير «سعدي». وترجمة البيت كما يلي:

إن حمار سيدنا عيسى لو ذهب الى مكة ورجع

فلا يفتأ حماراً.

---

(١) كان هذا الامير عالماً شاعراً صوفياً خطاطاً رساماً ولد في سنة ١٠٢٥ هجرية ومات قتيلاً في سنة ١٠٦٩ هجرية بيد أخيه عالمكير

(٢) تولى الامر من سنة ١٠٣٧ الى سنة ١٠٦٩ هجرية (٣) أي كافر

وغزل « شندربهان » من فيض الخاطر شعراً غنائياً بليغاً يتصف بعضه بشيء من سعة الافكار الصوفية ، شأن كل شاعر حاسر لثام ما في قلبه من الطموح الى المثل العالي في ذلك العهد. ونحن نرف اليك ترجمة بعض الأبيات منهُ فيما يلي. قال:

ما أشدَّ غفلتي إذ أسد سيل الدموع بالأهداب
ان الطوفان لا يمكن ان يُسَدَّ بجفنة من التبن
ان (الدم) يسيل من (جرح) كبدي فلا غرو
ان يصبح قميصي حديقة شقائق النعمان
ان عذارك في حركة دائمة
فكيف يطمئن قلبي ويسكن
إن طيفك زارني ليلة في الحلم فسليت به
ولم أفتح لذلك عيوني الباكية غداتها
أيها البرهن (١) ! أنا أطلب منك الاتصال المباشر
فان الأدلة والبراهين لا يعتمد عليها

ان ما نال « شندربهان » من المنزلة العظيمة في بلاط المغول ومجالس الامراء وادية الأدب ومسامرة الشعراء تكفاءته وجدارته بالادب الفارسي وشعره حدا اكثرية الهنود الوثنيين على اتقان الفارسية والتضلع من فنونها . ولم يكن الاقبال عليها محصوراً بين اهالي المدن والمقاطعات القريبة من دهلي — حاضرة الامبراطورية الهندية حينئذٍ — بل مهر فيها غير واحد منهم مسجلين آثارهم على صفحات تاريخ الادب الفارسي حتى من اقصى المقاطعات الهندية مثل بنجال . ففي بنجال كما ذكره المؤرخ شاه نوازخان في كتابه « ماثر الامراء » ترعرع الشاعر الخطاط « مزاداس » الذي خدم فن الخط والادب الفارسي خدمة لا يستهان بها في عهد الملك شاه جهان . ومن نكد هذا الشاعر انه سجن في اواخر حياته لسوء تفهم حدث بينهُ وبين حاكم مقاطعة بنجال « خان زمان » فكتب في السجن قصيدة هي

(١) برهن اسم الشاعر الرمزي كما تقدم . ومعنى برهن بالسنسكريتية طابعه « برهما » (أي الله) ثم أطلقت كلمة برهن أحياناً فيما بعد على « برهما » أيضاً على طريق المجاز . وعنا يريد الشاعر بالبرهن الله وهو ايضاً اسمه الرمزي

آية بالفارسية براعةً وغاية في الشعر بلاغةً استعطف بها الملك وأرسلها بواسطة حكيم ركنا كاشي الى دهلي فأطلق سراحه على أثره

كان في نفس الزمن في آباد شاعر مجيد بالفارسية ان اشتهر باسمه الاسلامي محمد علي ولكنه وثني الأصل ، تربى عند فارسي عامهُ اللغة الفارسية ثم تبناه في الآخر . واسمه الرمزي الشعري «ماهر» . فهو استفاد في اوائل حياته من مجالس الشاعرين الكبيرين « قدسي » و « كليم » كان ثانيها شاعر بلاط الملك شاه جهان . واتصل هو ايضاً بالامير « داراشكوه » فحظي به في ظل الجود الممديد وآوى الى قصر التقدير المنشيد ، فمنح لقب « مراد خان » . ولقد كان للشاعر « ماهر » هذا اليد الطولى في علوم الأدب الفارسي وفنونه حيث نجد كبار علماء الفارسية في ذلك الحين مثل محمد افضل خان سركش صاحب الكتاب القيم في تراجم الشعراء الفارسيين من تلامذته

إن كانت غزوة الملك محي الدين طلكير اورنك زيب[1] للهند الجنوبية ، وهو الذي بشرها بفتحه زماناً طويلاً ثم فتحها ، حملت كثيراً من اهل العلم والأدب على الانتقال من دهلي — عاصمة الامبراطورية الهندية الى المعسكر الملكي في جنوب الهند ، غير انهُ لم يزل لدهلي جاذبية نزعت الى مؤانستها قلوب العلماء وحنت الى مساقطها نفوس الادباء فهاجروا من بلادهم اليها . ومن هؤلاء المهاجرين العالم الصوفي الشاعر ميرزا عبد القادر بيدل الذي هجر بلدته عظيم آباد وتوطن دهلي . فتلقى عنهُ كثير من الناس في دهلي وتخرج عليه عدد كبير من أدباء الهنود الوثنيين وشعرائهم بالفارسية . منهم الذين برزوا في العلم وتركوا أثراً في الأدب والشعر الفارسي : الشاعر (سيورام)[2] « حياء » ، والشاعر (جوربخش) « حضوري » ، والشاعر (بندرابن داس) « خوشگو » ، والشاعر (سوخ راج) « سبقت » ، والشاعر (اندرام) « مخلص » . ومؤخر الذكر من الشوذين في الأدب الفارسي وفنونه في عصره . فقد ترجمهُ غلام علي آزاد البلغرامي في كتابه « خزانة عامرة » وانتقد شعره . ومما يؤسف له ان عوادي الزمن حالت دون وصول دواوينه الى ايدينا غير ما ذكر في كتب التراجم . وقد نوه به ايضاً العالم المؤرخ الشاعر سراج

(١) تولى الامر من سنة ١٠٦٩ الى سنة ١١١٨ (٢) بين القوسين اسم الشاعر الحقيقي والذي يجنبه اسمه الرمزي الشعري

الدين خان آرزو في كتابه « مجمع النفائس » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكته (الهند) فقال ما هو خلاصته :

« ان وفاء تندرام هو الذي حفزني على الاقامة في دهلي . ففي الثلاثين سنة الاخيرة لم يحرمني وفاؤه وحبه الكامل . وفي اوائل شبابه تلقى عن « بيدل » وأخذ الاصلاح منهُ في قصائده ، ومن ذلك الزمن ظل رفيقاً رفيقاً له . وخلاصة القول هو في هذا العصر من يشار اليهم بالبنان في العلم والأدب والشعر »

وقد نقل لنا سراج الدين خان آرزو بيتين له يدلان على حذقه الشعر الفارسي. واليك ترجمتها قال :

ايها الحب ! لا تؤذ مرة اخرى الضعيف مثلي
الغريبَ (في عالمك) المتألمَ وسائمَ الحياة
نحن لا نعرف حيوان التنديب المسكين
غير انا رأينا حفنة العظام تحت الورد[1]

وما حاز (بندر ابن داس) خوشكو من تقدير العلماء والادباء لطول باعه في الادب الفارسي والشعر لم يكن اقل منزلة لما حازه غيره من علماء الفارسية من الهنود الوثنيين. فهو ربي مثل غير واحد من معاصريه في مدرستي الاديبين الشاعرين ميرزا عبد القادر بيدل وسراج الدين خان آرزو ، وبلغ في الشعر والأدب الفارسي مبلغاً قل ان بلغه غيره حيث يفضل بعضهم كتابه « تذكرة » في تراجم الشعراء من بعض الوجوه على « مجمع النفائس » لاستاذه سراج الدين خان آرزو . وقد نقل لنا العالم الشاعر الوثني (لكشمي نراين) شفيق في كتابه « تذكرة حيل رعنا » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكته (الهند) شواهد كثيرة من شعره ، وروى لنا فيه أيضاً حكاية عن براعته في مجلس ادبي حين اعترض عليه في استعماله الاصطلاح الفارسي « داغ افتادن » (اي التبقع) كيف انهُ نال استحسان المجلس وتقديره على رده بسرعة الخاطر وغاية الظرف والبداهة المليحة بالاستشهاد من الشاعر الفارسي الكبير الذائع الصيت « صائب »

(لها تابع) السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

(١) من أساطير الادب الفارسي ان التنديب يعشق الورد . فمعنى البيت ان الورد أو عشقه أباد التنديب العاشق المسكين لذلك لم نجد الا عظامه تحت الورد